دار العلوم وبثقافته الغربية في جامعة لندن ، ثم تميز ببحث قيم مبتكر عن آرائهم في التربية .

عقد المؤلف الفصل الأول لدراسة الحياة السياسية في القرن الرابع ؛ لأنهم ثمرة عوامل عدة منها الحالة السياسية « والكائن المستقل عما قبله وما بعده والذى لا يتأثر بشيء مما حوله ولا يتأثر بشيء مما سبقه أو أحاط به — لا عهـــد للعالم به حتى اليوم ، فالمصادفة محال » .

ثم عقد الفصل الثانى للحياة العقلية ، فتكلم عن السريان وأثرهم ، وعن نشأة الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ، وأثر الفلسفة اليونانية فى العقل العربى ، وخلص من ذلك إلى أنهم تأثروا بالكندى فى فلسفته الطبيعية ، وبالمترجمين وآرائهم ، وبالفارابى فى إحصائه للعلوم ، حتى وضعوا رسائلهم التى تشبه دوائر المعارف بالنسبة إلى زمانهم .

ثم تتوالى الفصول بعد ذلك عن إخوان الصفا ، وزمانهم ، ومكانهم ، ونظام جماعتهم ، ومذهبهم ، وفلسفتهم ، ورأيهم فى النفس الإنسانية وفى التربية ، معروضة عرضا علمياً واضحاً مستخلصاً من رسائلهم .

ويجمل بنا أن نعرض بعض آرائهم التى استخلصها المؤلف من رسائلهم ، فهم مثلا يدينون بخلود النفس بعد أن تفارق الجسد ، ويوازن المؤلف بين رأيهم ورأى أفلاطون فى (الجمهورية) وفى (جورجياس) ، ثم بين الرأيين فى خلود كل نفس وبين رأى أرسطو فى خلود النوع الإنسانى . وهم يذهبون إلى أن البعث إنما يكون بأحوال تطرأ على النفس بعد انسلاخها من الجسد ، ويقولون بخلود العالم ، ويتساءل المؤلف : كيف يتفق هـذا الرأى المخالف للدين الإسلامى مع آيات القرآن الكريم ؟ ويورد تفسيرهم لآيات البعث تفسيراً قائماً على التأويل ، ويحكم بأن هذا تعسف وتكلف . ثم هم يذهبون إلى أن العلم دعامة فى صرح الأمة ، وعلى الآباء أن يتخيروا لبنيهم المعلم الصالح المستنير المتحلى بفضائل عدُّوها والبرأ من رذائل أحصوها ، والمعلم كالأب له على تلميذه حقوق الأب .

وتكلموا عن التلميذ والمنهج الدراسى الملائم له وطريقة تحصيله للعلم ، واهتموا باستخدام الحواس فى التحصيل اهتماماً زائداً فى مواضع شتى ، وسبقوا برأيهم (بستالوتزى) فى عنايته باللاحظة والإدراك الحسى ، وسبقوا (هربارت) فى نظرية الاستطلاع ، وبقولهم إن قوى النفس الإنسانية متحدة مرتبط بعضها ببعض .

ثم هم يذهبون فى التربية الخلقية إلى أن الخير يجب أن يعمل حباً فى الخير ، لا رغبة فى ثواب ولا رهبة من عقاب ، لأن هذا الخير المحض هو السعادة ، ويقرر المؤلف أنهم سبقوا بهذا الرأى الفيلسوف الألمانى (كانت) الذى بنى فلسفته الأخلاقية على أن الخير يجب أن يعمل لذاته . ثم يعرض المؤلف رأيهم فى الفضيلة وتأثرهم بأرسطو فى أنها وسط بين رذيلتين .

وبعد ، فهذه لمحات أو قطفات سراع من هذا البحث الممتع القيم ، وكانت آراء إخوان الصفاء زهرات مبعثرات ، فجمعها المؤلف فى طاقة منسقة كانت هذا الكتاب ، ومن ذا الذى لا تهفو نفسه إلى أن يستمتع من هذه الطاقة بنظرات وسبحات؟

أحمد محمد الحوفى

زقاق المـــدق

(قصة للأستاذ نجيب محفوظ)

هو اللوحة الحية الرائعة التى رفعت عنها ريشة الفنان البارع الأستاذ نجيب محفوظ . وقد يعجب القارىء من ناقد يفتتح مقال نقده بهذا المديح الجارف ؛ ولكن مهما يكن الناقد مسرفاً فى تزمته ، فإنه إزاء نجيب لا يملك غير المديح المتدفق يجرى على قلمه لا يقف فى سبيله أى عارض من عوارض التوقر التى تركب النقاد. بل إنه يجد خلف هذا الاندفاع ما يشجعه على المضى فى السبيل التى يسلك حتى يريح ضميره الأدبى مما يحسه نحو هذا النابغة الفنان ... وقد أصبح الهدم فى أيامنا هذه بضاعة سهلة ، يسومها كل محاول للكتابة ... يظنون أن الشتيمة جرأة ... يا هؤلاء ! إنكم إذ تشتمون تظهرون بمظهر الجرأة حين لا جرأة لديكم ، لأن من تشتمون لا يملك أن يلحق بكم أذى . ولكنكم إن مدحتم استهدفتم لقول القوم : إنهم يتملقون . وما أجرأ من يعرض نفسه لهذه القالة ... وهأنذا أمدح ... لا عن رغبة فى إظهار جرأتى ، فلن يظن بى أحد تملقاً ... لكن رغبة فى أن يكون الحق — حتى ولو كان مديحاً — هو الحكم الوحيد الذى تخضع له ضمائرنا ... إننى أعلن فى يقين راسخ أن نجيباً أصبح فى القمة الشاهقة التى يعتليها كبار كتاب القصة المصرية .

واضح من العنوان أن القصة قد أخذت مساربها فى أحياء وطنية خالصة ... ولكن الغريب فى أمر هذه القصة أن الأستاذ نجيب لم يطارد شابا بذاته من شبان الدق ليجعله بطل قصته ، ولم يجر خلف فتاة معينة من فتيات الزقاق ليقيم منها الشخصية الأولى فى القصة . لم تكن شخصية البطل آدمية ، بل كانت الزقاق أجمعه بما يحويه من مشايخ وكهول وفتيان ، وما يحويه أيضاً من عجوز متصابية ، وكهلة تريد الزواج ، وفتاة تستعرض فتيان الزقاق .. كان بطل القصة هو الزقاق .. كان لكل شخص قصته وصورته .. ولكل معهد من معاهد الزقاق رفاقه يكونون رسمه ويروون روايته .. ثم كان لكل قصة نهايتها ..

إن زقاق الدق هى القصة الأولى من نوعها فى اللغة العربية. إذ جرى كتاب القصة على أخذ شخص أو شخصين ينسجون حوله أو حولها قصتهم نسيجاً لحمته أشخاص آخرون . أما أن يكون كل شىء فى القصة بطلا ، فهذا نوع جديد فى القصة العربية . ونجيب بارع كل البراعة حين يظل ممسكا بقياد القصة بين يديه لا يدع مجالا لها تفلت منه ، حتى يصل بكل شخصية خلقها إلى النهاية التى أرادها .

وعجيب أن يستقيم له هذا الأمر مع هذا الحشد الهائل من شخصيات روايته ... وقد انتفع الأستاذ نجيب بكل الظروف التى أحاطت بعهد القصة . فكان للحرب دور كبير فى الرواية . فهى التى مهدت السبيل لابن القهى أن يكون غنياً يستطيع أن يذهب إلى السينما ، وأن يمشى بين رفاقه مزهواً بميرهم بيقائهم على حالتهم لا يبذلون فى سبيل «التريش» مجهوداً . وما زال بمجرفته حتى حدا بالحلاق أن يشد الرحال إلى الإسماعيلية فيعمل «بالأرتس» يجمع أموالا تليق بفتاة أحلامه وفتاة الدق التى خطبها قبل السفر .. والحرب هى التى هيأت للفتاة أن تكون « ارتست » ونرى نجيباً وقد أنشأ مدرسة قائمة بذاتها لتعليم أرتستات الحرب كيف يأخذن المال من « چونى » ونرى معلم المدرسة وقد رسمه نجيب رسماً عجيباً ... مزيجاً من الشدة واللين ، ومن اللطف والفظاظة . ولئن كانت المدرسة حقيقة سمع بها نجيب ، فتسجيلها فى قصته لفتة جميلة . وإن كانت بنت خياله فهو رائع إذ ينشئها .

وكما أفاد نجيب من الحرب ، أفاد من نهايتها أيضاً .. فأخرج العامل المتعجرف من عمله ، وأطلقه سكيراً ، هائماً على وجهه ، ثم قاتلا لأخته من الرضاعة التى أصبحت فى نظره جريمة العفة .

وأعادت نهاية الحرب الحلاق النازح للغنى إلى الزقاق حيث يجد فتاته وقد أصبحت ذات ثراء واسع سكبه عليها لينها ، فهو يساعد أخاها فى قتلها .

وقد كان للظروف الطبيعية التى يمر بها كل قوم دور فى الرواية . فنرى شاعر الربابة يضم قيثارته ويخرج من قهوته الأخيرة بعد أن ابتاعت « راديو » وأصبحت فى غنى عن قصصه التى حفظها جميع رواد القهوة .

ويمتاز نجيب برسم شخصياته كما يخلقهم الله . فنرى فى الشرير خيراً وشراً . ولكنه يغلب فيه ناحية الشر على الخير ، ونرى فى الخير شراً وخيراً ، ولكن خيره غالب على شره .

ولنأخذ مثلا للشخصيات الخيرة فى الرواية الشيخ رضوان الحسينى فنرى الخير فيه غالباً . فهو الذى يلجأ إليه سكان الزقاق فى الملمات . وهو المثل الذى تشير إليه الأمهات إذا شئن أن ينصحن أبناءهن .. ولكنه مع هذا شرير مع أهل بيته ، يفرغ فيهم مايكظمه من غضب فى مخاطبته لأهل الزقاق. أما الشخصيات الشريرة فهى كثيرة ؛ ولكن لنأخذ مثلنا القهى ، فهو رجل ذو أمزجة مختلفة كلها شاذ يدعو إلى الاستنكار الشنيع . ولكنه مع هذا لا يطيق أن يبذل وعداً بالصلاح حين يطلب إليه الشيخ أن يبذله . فهو رجل لا يعد دون تنفيذ .

لن أحاول الكلام عن جميع الشخصيات التى رسمها الأستاذ نجيب، فهى — كما قلت — كثيرة ، وكلها بطل ؛ ولكن ثمة شخصية رسمها نجيب حاد فى لمحة منها عن طريق كنا ننتظر أن تسلكه ، هى شخصية صاحب الوكالة . وهو بك كبير فى السن ، كان يأمل أن يتزوج من فتاة الزقاق . وكم كان الأستاذ نجيب موفقاً فى عرضه لهذا الحب العجيب بين الغسق والضحى. ولكن قبل أن يتم الزواج سقط الرجل مريضاً ، ولج به المرض ، ثم شاء له الله الشفاء وكنا ننتظر أن يقوم من مرضه مؤمناً بالله ، شاكراً له ، ولكن الأستاذ نجيب أقامه ساخطاً على الدنيا ، برما بها ، كافراً بنعمة من شفاه ... ومن الناس من يصاب بهذا ... وكل ما ألاحظه أننا كنا ننتظر غير ذلك ... ولا ضير عليه إذا أخلف ظننا .

وبعد . فلا يسعنى إلا أن أقدم للحياة المصرية العصرية كل تهنئتى أن وفقت إلى قصاص كنجيب ، يرسمها فيترك منها للأجيال القادمة صورة واضحة المعالم جلية المعارف .

ثروت أباظة